# تمهيد
# درس مفيد

لم يكن مارك توين أعظم ظرفاء عصره فقط، ورجع صدى كلماته ما زال يتردَّد بيننا لا بسبب ظرفها العابر لحدود الزمان وحسب، ولكن لحكمتها الاستثنائية أيضاً. كما أن سخريته اللاذعة من أسلوب الحياة التي نعيشها جميعاً تعطينا، حتى في هذه الأيام، درساً مفيداً في وعي حقيقتنا الفعلية، وتصيبنا، إضافة إلى ذلك، بإحساس غريب من الاستخفاف بالذات يمكن أن يهز كياننا بعنف ليطرد شيئاً من أنانيتنا، ويجعلنا نحاذر من إيماننا الراسخ بمعرفة كافة الأجوبة.

لا تتجلَّى فائدة دروس مارك توين حول هشاشة الطبيعة البشرية مثل تجليها في الأَسواق المالية. لأنه، والحق يقال، ليس لدينا القدرة على تحسين الاقتصاد الإنتاجي لاستثمار طويل الأجل. إذ أن وضعه الحالي جيد بما فيه الكفاية. لكن شعوراً وطيداً بوعي الذات يمكن أن يساعدنا على التخفيف من غلواء العواطف «المضادة للإنتاج» التي

تدفعنا لتركيز بؤرة الاهتمام على الاستثمار قصير الأجل، الأمر الذي يحبط محاولتنا لتحقيق أهدافنا البعيدة المتمثِّلة في تراكم الثروة.

لهذا يبدو من المنطقي تماماً، بل كأنما هو نتيجة وحي ملهم، أن يعقد أندرو ليكي العزم على ربط ظرافة وحكمة مارك توين مع منظور الحس البدهي السليم الذي يملكه حول بناء برنامج استثماري ناجح منظور يبدو أكثر أهمية هذه الأيام حيث ترتفع إلى حد كبير سرعة تذبذب أَسعار الأَسهم في السوق، وتنتشر أساليب الغش والاحتيال المالية على أوسع نطاق. من المؤسف أن مارك توين ليس معنا هذه الأيام ليعلِّق على الفوضى العارمة التي تخبط بها الاستثمار في السنوات الأخيرة. ولو كان هنا اليوم لكتب شيئاً كالتالي:

> ليس هناك بالتأكيد ميدان أشرف للجهد البشري من إدارة أموال الآخرين. فكلما أدرت أموالهم أكثر كلما كسبت مالاً أكثر! لن يسألني زبائني عن مكان اليخت الذي أملكه. وطالما أجني مالاً لنفسي أكثر مما أكسبه لهم، ستبدو حياتي ذات قيمة أكبر بطريقة أَو بأخرى. سحر الإثراء ـ والإبحار باليخت ـ يسلب اللب وينأى عن الوصف.

هذه الكلمات ليست له بالطبع، لكن حدث وأصبحت ضرورية لاستحضار حكمة مارك توين إلى البيئة الاستثمارية المعاصرة. لنتأمَّل الأمثلة الثلاثة التالية:

- «أكتوبر. هذا واحد من الأشهر الخطرة إلى حد استثنائي بالنسبة للمضاربة في الأَسهم. أما الأشهر الأخرى فهي يوليو، يناير،

سبتمبر، أبريل، نوفمبر، مايو، مارس، يونيو، ديسمبر أغسطس، فبراير». هنا، لم يكن مارك توين يشير فقط إلى نقطة هامة لا تتقيَّد بعصر معين ـ كل الشهور خطرة بالنسبة للمضاربة في البورصة ـ بل يقدِّم رؤية صادقة بشكل غريب. فقد بدأ القائمة بشهر أكتوبر، الشهر الذي شهد أعظم انهيارين في أَسهم البورصة في تاريخ أمريكا: الخميس الأسود (24 أكتوبر 1929) والاثنين الأسود (19 أكتوبر 1987).

- . . يقول السفيه: «لا تضع كل بيضك في سلة واحدة»؛ لكن الحكيم يقول: «ضع كل بيضك في سلَّة واحدة وراقب تلك السلَّة». في الأَسواق المالية اليوم، يمكن للسفيه والحكيم كليهما اتباع الاستراتيجية نفسها: تملك قدرة التحمُّل كل «بيض» الشركات المساهمة في كافة الميادين، واحتفظ بها إلى الأبد. لكن حتى وإن كنت تحقِّق بذلك تنويعاً كاملاً، عليك أن تراقب الأمور بعناية للتأكّد من إدارة السلة الواحدة لجميع الأَسهم بأقل قدر من الكلفة.

- «مما يثير الاستغراب نجاح المغفلين والأغرار في كثير من الأحوال دون أن يستحقوا ذلك، في حين يفشل العارفون المتمرِّسون». يقترب هذا الشاهد بصورة مذهلة من كلمات وارن بوفيت الشهيرة: «عبر الاستثمار الدوري في أَسهم صندوق مشترك مدرجة على لائحة المؤشر المالي، يمكن للمستثمر الذي لا يعلم شيئاً أن يتفوَّق في الأداء على أكبر خبراء الاستثمار

حنكة ودراية. ومن المفارقة أنه حين تعترف الأَسواق «الغبية» بحدودها المقيدة تنفي عنها صفة الغباء». بالطبع يتحدَّث بوفيت هنا عن الحقيقة التي تشير إلى أن مجرد امتلاك سلة سوق الأَسهم سيقدِّم 100٪ تقريباً من عائد السوق، في حين سيقدّم المدير العادي في المتوسط ـ وبسبب التكلفة فقط ـ نسبة من ذلك العائد تتراوح بين 75 ـ 80٪ تقريباً.

إن نفقات مبيعات صناديق الأَسهم المشتركة، ورسوم الاستشارة المالية، وتكاليف التشغيل، يمكن لها أن «تخدعك»، حسب تعبير ليكي. وفي واحد من أقوى فصول الكتاب (الفصل 47)، يستحث قارئه على التفحص الدقيق للمبالغ التي يدفعها على أمواله إلى الصندوق. وكما يؤكد كتابه، يكمن سر الاستثمار الناجح غالباً في الحس البدهي السليم ـ قم بتنويع استثماراتك، وابق تكاليفك منخفضة، وقلِّل من دوران رأسمال حافظتك المالية، واستثمر بصورة منتظمة، وتعامل مع توقيت السوق بجدية، وفوق كل شيء، اختر الاستثمار طويل الأجل. مرة بعد أخرى، يلح أندرو ليكي مكرِّراً هذه الدروس المهمة، ومستخدماً ظرافة وحكمة مارك توين إلى أقصى حد ممكن، لإقناع قارئه بوجهة نظره. وبرأيي، إذا ما تعلمت هذه الدروس جيداً، واتبعتها بأمانة، فلا بد أن تكافىء بتراكم في رأسمالك يتجاوز بمراحل ما حقَّقه جيرانك.

في الجولة التي يطوف فيها ليكي عبر الرؤى المتبصرة لمارك توين، يقدِّم لنا كافة التنبيهات التحذيرية المناسبة ـ حول المضاربة

(كنْ على حذر)، والفقاعات المالية (التي تنفجر)، والنشرات الاستثمارية (حيث تنبو «بنادقها التنبؤية» عن إصابة الهدف غالباً)، وحقوق حملة الأَسهم (أنت تحتاج فعلاً إِلى «برنامج جديد»). وبعد أن تأخذ كل هذه الأمور بعين الاعتبار، «احصل على المال، ولسوف يتفق كل الناس على دعوتك بالسيد النبيل»، كما قال مارك توين. إن اتباع الحكمة وحس البداهة المتضمنين في هذا الكتاب سيعينك على كسب المال الذي تحتاجه لتأمين مستقبل مريح، ولسوف يناديك الناس «يا سيدي»، (أَو «يا سيدتي»). عوِّد نفسك على ذلك!

*جون. ت. بوغل*

obeikandl.com

obeikandl.com

## مقدمة

# الاستثمار في مارك توين

بغض النظر عن مسلك الأَسواق على المدى الآجل أَو العاجل، فإن الاستثمار في مارك توين يشبه شراء سهم مالي مضمون الربح، بل أكثر ضماناً من معرفة الرهان على الحصان الفائز في سباق «ديربي كنتكي» بعد الحصول على معلومات سرية تكشف عنها مسبقاً. لقد دوت شهرته كشخصية متميزة وجذَّابة مع «مغامرات هاكلبري فين» بوصفه كاتباً محفزاً يستثير قارئه. أما المحاججة التي دارت حول ما إذا كان على المدارس الثانوية أن تجعل من الرواية جزءاً من مناهجها، فقد أنقذتها من الانضمام إِلى تصنيف مارك توين للأعمال الإبداعية الكلاسيكية: «العمل الكلاسيكي هو العمل الذي يمتدحه الناس لكن لا يقرؤونه». وبالرغم من أن العديد من المثقفين ـ النقَّاد تابعوا مناقشة حياته المهنية وكتاباته وإبداعاته، الأمر الذي كان سيعتبره «صناعة عتيقة»، إِلاَّ أنها في الجوهر صناعة التكنولوجيا المتقدمة. تفحص المواقع على شبكة الإنترنت مثل: york.ca/twainweb أو

marktwain.miningco.com . واطلب المساعدة من «منتدى مارك توين» TWAIN-L@YORKU، أو ادخل على البريد الإلكتروني عند marktwain.guide@about.com . ومن خلال موقع ebay.com يمكن ألا تكتفي فقط بمحاولة الحصول على الطبعات الأولى من كتبه، ولكن أيضاً على سجل بتذكارات منه وأشياء قديمة بالية لم يخطر على بالك أبداً أنّها من «ممتلكات البشر»، حسب تعبير مارك توين. لقد عيل صبره قبل أن يقطع جميع الأزرار من القميص ذي الياقة المنشّاة، أو يقلب المظلة الضخمة رأساً على عقب. كان مارك توين سينظر بعين الشك إلى «لوحة المفاتيح» الحسّاسة الملمس التي لا تقبل الخطأ. لكن الافتتان بالجديد كان سيجعله راضياً بأحدث البرامج الإلكترونية أو الابتكارات التكنولوجية التي لا تتجاوز حجم الكف؛ ولسوف يثبت دون ريب مشبك جهاز النداء الإلكتروني (البيجر) على خصر كبير خدمه، وربما بناته، أو حتى قططه. وهنالك دلائل تشير إلى أنه كان سبّاقاً في تجربة الآلة الكاتبة، والهاتف، والديكتافون، والدرّاجة ذات العجلة الأمامية المرتفعة التي تتطلّب قيادتها حذقاً وحذراً ـ وظلت لعدّة سنوات تحتل قمة الآلات السريعة التي تسير بالطاقة البشرية. كما أظهرته الصور يطوف في الشوارع بثقة وهو يقود أوائل السيارات العملية التي صنعت آنذاك.

إن أي حديث عن مارك توين وابتكاراته لا بد أن يؤدي إلى «منضّد الحروف الميكانيكي» الذي أعاد تدوير ثروته البالغة مائتي ألف دولار بأسعار أواخر القرن التاسع عشر. وعمل الكثير من كتّاب السير

الذاتية على التبخيس من قدره باعتباره مضارباً متهوراً، بل مقامراً طائشاً من ذلك الصنف الذي يمون بأمواله نوادي القمار الباذخة في لاس فيغاس: مثل المقامر (رجلاً كان أم امرأة)، الذي يؤمن في أعماقه بأن الحظ/ الثروة إلى جانبه مهما طالت فترة الحيرة والقلق والترقب التي يمر (أو تمر) بها، أو يستمر في مضاعفة الرهان لأن «قوانين» الاحتمالات لا بد أن ترجح ربحه في النهاية. ومع ذلك، ففي حين أن مارك توين عرف وتحدَّث كثيراً عن المقامرة (بأوراق اللعب، وليس بالنرد)، وسخر منها مراراً (الأمر الذي يعتبر علامة جيدة)، إلاَّ أنه لا يوجد ما يثبت بأنَّها ألحقت به خسارة ثقيلة، ناهيك عن كونها إجبارية. أما كمستثمر، فلم يولع بـ«الزوايا» المهملة المظلمة، بل أغرم بالابتكارات، أو الآلات والعمليات الإنتاجية. ورغم الاعتراف بأنه أمل في الحصول على الملايين، لكنه استهدف المساعدة على تحسين التكنولوجيا، وبالتالي ازدهار ورخاء الجنس البشري، فكرياً ومادياً. ولسوف يسرع منضِّد الحروف الميكانيكي ذاك من انتشار الكلمة المطبوعة، الأمر الذي سيجعل التنوير أكثر اتساعاً، وأعمق جذوراً، وأرخص سعراً، مقارنة بأية فترة سابقة.

لكن منضِّد الحروف المصنوع من الرصاص المصهور قد آل إلى الإهمال والزوال و«غرق في بحر سارغاسو». واليوم يعتبر فكر مارك توين سهماً مالياً من أسهم الطاقة ومن الممكن دمج آرائه ضمن أي مشروع تجاري مثير. وإذا أمكن انتقاد «توم سوير» أو «هاك فين» «Tom Sawyer or Huck Finn» بوصفهما روايتين استخدم فيهما مارك

توين أسلوب التعليم المباشر، أَو افتقدتا روحه الساخرة المعهودة وأظهرتاه كشخص مولع بالحياة العائلية، إلاَّ أن كلاً منهما قد عرضت على القارىء خيار اعتباره «رحالة» مغرماً بالسياحة، بل ـ وأكثر من ذلك ـ «مشجعاً رياضياً» (للعبة البايسبول على أية حال). لقد قدم ويليام بليك الأدلة على أن «الطاقة هي البهجة الدائمة». وعلى نحو مميز، كان مارك توين سيجمع الأخبار المنتشرة عن الراديوم المشع ويسخر منها بدلاً من أن يشعر بتهديدها. وظل فكره ومزاجه يشعّان حكمة وفطنة وفي العديد من الاتجاهات. وحتى حين بلغ أرذل العمر (وفي معظم أيامه حينذاك كما يقال) شعر بأنه لا يستطيع أبداً أن يجد الوقت الكافي لكل ما يستحق أن يعرفه، أَو يعمله، أَو يقوله. والآن ما زال يعتبر مضارباً من ذلك النوع الذي يأمل بارتفاع أسعار أَسهمه. لكنه يحمل مسؤولية اجتماعية، على عكس جاي غولد، الذي بغضه لدرجة أن تغيّر هيئته من محتال إلى أخرق إلى محتال من جديد لم يمنحه الفرصة ليعرف بأنه واحد من بين ثلاثة كتَّاب مفضَّلين لدى غولد.

وبغضّ النظر عن العموميات، يعتبر مارك توين مستثمراً مثيراً للعديد من الإشكاليات المعقَّدة، يواجهها أيضاً أولئك الذين يقيّمون ذلك الجانب من شخصيته. فقد تحدث كثيراً بشكل يفتقد التناسب عن الخسائر التي لحقت به ـ عن أخطائه التي فاقت خطواته الذكية عدداً بالتأكيد. إن الأخطاء الفاضحة تعطي مرابح أكبر في الأدب الساخر المترع بروح الدعابة؛ والعثرات المضحكة سوف تسلي البشر

إلى أن تُبهت السنون جِدَّتها وتكشف دوافعها الكريمة النبيلة. ومهما بلغت حماسة وجدية الجمهور عند التهليل للفائز المتباهي بإنجازه، فسوف يهزأ منه في السر حين يظهر اسمه مع المفلسين في صحيفة الـ«وول ستريت». بل إن المناصرين المخلصين لمارك توين سوف يصنِّفونه باعتباره ساذجاً سهل الانخداع، وفاشلاً لا يمكن تثقيفه في مجال التعامل مع شؤون المال. وقد يجدون الراحة في حقيقة أنَّهم دخلوا اللعبة الاستثمارية بعد اتخاذ كافة إجراءات الأمان والسلامة، أَو يفضِّلون التغلّب على تحذيراتهم من المجازفة التي يواجهونها بشكل ممتع ومسل. هذه الاحتمالات المتعارضة تبقي اليوم على حيوية شخصية رجل الأعمال داخل مارك توين تماماً مثل شخصياته الأخرى المفعمة بالحياة. ولا تزال قلة قليلة من المعجبين به تميل إلى الاعتقاد بأن الرخاء الاقتصادي آية من آيات الله (دون أية تورية!) ونعمة يسبغها على عباده، ولذلك اختار هؤلاء تركيز بؤرة اهتمامهم على بيوته المترفة التي تدار بأفخم الوسائل في هارتفورد وريدنغ في ولاية كنيكتيكت. في حين اختار آخرون، ممن استطاعوا فهم مدلول لفظة «Schadenfreude» (التي تعني شعوراً مغرضاً بالبهجة الحاقدة) بالنسبة للألمان، إظهار إخفاقاته وعدم الاهتمام بحساب كم كسب خلال سنوات حياته، أَو بشكل أضيق، كم كان فاعلاً ومؤثِّراً في مساوماته للحصول على أفضل الأسعار لكتاباته. وتابعوا غزل خيوط قصته المتصلة بكيفية رفضه للمساهمة بتمويل ألكسندر غراهام بل (مخترع الهاتف). أما أكثر المعجبين توازناً وتساوقاً فيستمتعون بما

شهده حظه من صعود وهبوط ـ ويضخِّمون مواجهته لصروف الدهر التي مر بها. فالخسارة أمر جلل، لكن تعويضها يظل حدثاً أكثر جلالاً وعظمة.

في نهاية المطاف، ومهما كان نوع التنظير المتداول، من الأفضل تركيز الانتباه على الحقائق والقرارات المبنية على البداهة السليمة، مثلما كان يفعل مارك توين تماماً. لم ينقلب أبداً إلى خيالي متعلِّق بحبال الوهم إلى درجة «رفع ملعقة حسائه حتى أذنه». فقد وصفه أحد زملائه من الكتَّاب الساخرين بالقول إنه كالمهرج الذي يأخذ البطاقات على مدخل السرك: يسلي الحضور لكنه يقوم بعمله بكل جدية. في مؤلفه الذي لم يكمله أبداً «كتاب فن الإتيكيت الساخر» «Burlesque Book of Etiquette»، قدَّم النصيحة في فصل بعنوان «عند قتال الدُون»: «اجعل تعاطفك السرِّي وشفقتك دائماً مع الخاسر ـ وهذه هي الشهامة؛ لكن راهن على الرابح ـ وهذه هي التجارة». ولأن أندرو ليكي حوَّل فطنة وظرف مارك توين إلى ممارسة عملية مفيدة تثير الإعجاب، سوف أقارب بصورة عابثة حواف تخومها فقط.

أولاً، إذا كنت تجل قيمة أقوال مارك توين، انتبه للسرقات الأدبية والانتحال. فالتجّار، أقصد الذين يعيدون سرد أقواله المأثورة، ينسبون له ما شاؤوا من عبارات لاقتناص الزبائن المهمين. «كل الناس يتحدَّثون عن الطقس، لكن لا أحد يفعل شيئاً حياله». أو، لإظهار إجلالهم الصادق له، يوقعون على تفويض التحدث باسمه تحت ستار الظرف والذكاء والفطنة الساخرة التي يظنون بأنه يستحقها. «هناك

ثلاثة أصناف من الإفك: الأكاذيب، والأكاذيب اللعينة، والإحصائيات». أَو لدعم نبوغه بطريقة فظة، يلفِّقون الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التي ينبغي حسب رأيهم أن يكون قد فكَّر بها. «إن فن التنبؤ مسألة في غاية الصعوبة، خصوصاً فيما يتعلَّق بالمستقبل».

ثانياً، سقط مارك توين فعلاً في وهدة الإفلاس (الذي حل بشركته)، وبعد بضع سنوات قال جذلاً أمام صديق: «كل شيء ألمسه يتحوَّل إِلى ذهب». تعلَّم أن الإفراط في الثقة يمكن أن يغرق الإِنسان بسرعة كرة مصمتة من الرصاص؛ وأخذ على محمل الجد دوماً مسألة الذهاب إِلى المحكمة، يقوده إليها المحامون والمحاسبون. واللبيب من الإِشارة يفهم (رغم أن مارك توين لم يستخدم التورية عادة).

ثالثاً، مات مارك توين ثرياً، لكن بعد أن تعلَّم الملاحة بذكاء في شارع المال (الوول ستريت). وفي الحقيقة، قد يبدو السجل المتعمِّق لحماسته الساخرة في أواخر أيامه مثل سجل المتاجر الداخلي في شركته بالنسبة لـ«هيئة الأوراق المالية والبورصة» (SEC) (اللاحقة). لقد عايش فعلاً أشهر الأثرياء في عصره إضافة إِلى أندرو كارنيجي. إذ حضر توماس فورتشن ريان وأوغست بيلمونت الابن كلاهما حفلة عيد ميلاده السابع والستين. وفي السنة التالية، وخلال حفل عشاء سبق الإبحار باليخوت نظم على شرفه في نادي «ميتروبوليتان» الفخم، كان أكثر من نصف الضيوف العشرين قد جرى تعريفهم في كتاب «من هو في أمريكا: 1903 ـ 1905» «Who's Who in America, 1903 - 1905»، باعتبارهم صناعيين، أَو ممولين، أَو مجرد

«رأسماليين». يقدم أندرو ليكي هنري هوتلستون روجرز بوصفه «المستشار المالي» لمارك توين. وهذا تصريح شجاع لكن لا يوفي الواقع حقَّه، لا بالنسبة لكيفية عمل روجرز مع/ أو لصالح شركة «ستاندارد أويل»، ولا بالنسبة لكيفية تعامله مع حسابات مارك توين لمدة ناهزت خمس عشرة سنة، الأمر الذي أدَّى إلى أن يخلف بعد موته تركة من الموجودات ما زالت تستحق الرعاية الدقيقة من مصرف «تشيس مانهاتن».

أخيراً، أضاف مارك توين كمستثمر نفس النصائح المفيدة التي قدمتها شخصياته الأخرى: حافظ على المرونة الفكرية واليقظة والانتباه، وتمسَّك بحس الدعابة لأنك ستحتاجه عاجلاً أم آجلاً، ولن تقتصر الحاجة إليه فقط من أجل تأليف «كتاب فن الإتيكيت الساخر». لقد تضمَّن كتاب مارك توين ما يلي: «إذا كنت تعيش في الريف، اشتر بسعر ثمانين دولاراً، وبع بسعر أربعين. ثم تجنَّب كافة أشكال الغرابة والشذوذ».

أما بالنسبة للقواعد الجدية المتعلقة بالإستثمار، فإن مارك توين كان سيقنع، برأيي، بنقاط «ويلسون» الأربع عشرة في نهاية المقدمة التي كتبها أندرو ليكي.

لويس جي. بود

# مدخـل
# موائمة مارك توين للعصر

فهم مارك توين طبيعة المال مثلما أدرك طبيعة البشر تماماً. ويمكننا التعلُّم من دعاباته، وتحذيراته، وأخطائه. أما نصيحته الأساسية ـ استخدام الحس البدهي السليم في اختيار البدائل الاستثمارية، مع ادخار بعض الذخيرة اللازمة للمضاربة في البورصة ـ فهي مناسبة وصالحة تماماً للقرن الحادي والعشرين، حيث يتعايش الاستثمار في الأَسهم الممتازة التي لا تتأثَّر بالصدمات، جنباً إِلى جنب مع الإستثمار في أَسهم التكنولوجيا المتقدمة السريعة التقلُّب والتأثر. وعلى شاكلة العديد من المشهورين، غرق في ديون كثيرة اضطرَّته لطلب مساعدة مخطط مالي داهية لإعادة أموره المالية إِلى نصابها.

ولد مارك توين، الروائي الساخر وأشهر الكتَّاب الأمريكيين وأظرفهم وأكثر من تكرَّر الاقتباس من أقواله بينهم، لعائلة فقيرة في ميسوري سنة 1835م، وتوفي ثرياً في كنيكتيكت سنة 1910م. أما اسمه الأصلي فهو لونغهورن كليمنس. كان المال، أَو بالأحرى نقصه،



obeikandl.com

مكوناً قوياً في رصده للوضع الإنساني وملاحظاته عنه. ومثلما يدقِّق المستثمرون المعاصرون قبل الاكتتاب في إصدارات الأَسهم العامة الأولية (IPOs) والأَسهم الخطرة المرتبطة بالإنترنت حين يقومون بتوسيع حافظاتهم المالية، كذلك كان المستثمرون في أيام مارك توين يستطلعون احتمالات المعادن الثمينة وأَسهم أحدث اختراعات العصر، كالهاتف على سبيل المثال. عاش مارك توين في عالم يمكن أن «يحدث فيه أي شيء» ـ لا يختلف بذلك كثيراً عن عالمنا ـ ويتصف بتقلقل واضطراب الوضع المالي، وسيطرة المحتالين والسفهاء، واحتلال الصناعيين الأثرياء لعناوين الصحف والأخبار. وسط هذه الجلبة، لم يأخذ ذاته على محمل الجد كثيراً. فقد كتب في إحدى رسائله، واضعاً نفسه في مكانها الحقيقي: «آه، حسناً، أنا أحمق عظيم وجليل، ولكن مع ذلك فأنا من خلق الله، وينبغي أن نتفكَّر في كل ما خلقه باحترام».

كتب مارك توين لقرّاء من كافة الأعمار والعصور، وخلف تراثاً ضخماً، ولا عجب أن تباع رسائله الشخصية المسلية دوماً والمترعة بالظرف والفكاهة والذكاء بمبلغ يصل إلى ألف دولار للصفحة الواحدة في المزادات. وفيما يتعلَّق بأخلاقيات العمل، مثلاً، فقد كتب توم سوير الشهير الذي يتملَّق أصدقاءه كي يدفعوا له أجره تفاحة، أَو كريات لعب زجاجية، أَو أَسهماً نارية، أَو غير ذلك من الممتلكات الثمينة، لينال امتياز صبغ سياج بيت العمة بوللي بماء

الكلس في «مغامرات توم سوير». أحب مارك توين المراهنة، وفي وقت مبكر من مهنته ككاتب سمع قصة مضحكة حول رهان على قفز على طريقة الضفدع، وقد تمَّت خسارة الرهان حين قام أحدهم بتلقيم أحد الواثبين خردق صيد الأيائل ليجعله أثقل وزناً. أما القصة القصيرة التي كتبها بعنوان «الضفدع النطاط الشهير في مقاطعة كالافيراس» وأرسلها إلى إحدى مجلات الساحل الشرقي، فقد أطلقته إلى عالم الشهرة بشكل فوري ودائم على المستوى القومي. سخرت روايته الأولى «عصر البريق الزائف: قصة معاصرة» من «القطط السمان» من رجال الأعمال، وانتقدت هوس أمريكا بالإثراء: أصبح عنوانها اسماً يسم تلك الحقبة المتهوسة بالثروة. أما رواياته الأخرى، مثل «مغامرات هاكلبري فين»، والمجموعة المتنوعة من القصص القصيرة، والأحاديث والخطب، والرسائل الشخصية، فكانت جزءاً من المعركة التي خاضها طيلة عمره ضد ضيق أفق التفكير، وانعدام العدالة، والقسوة. وكما أشار إرنست هيمنغواي، الروائي الأمريكي العظيم الآخر: «يأتي كل الأدب الأمريكي الحديث من كتاب واحد لمارك توين يدعى «هاكلبري فين»».

كان مارك توين نصيراً متحمساً للابتكار التكنولوجي وسوق الأَوراق المالية، ولو عاش بين ظهرانينا اليوم لانهمك بالتجارة الإلكترونية على الأرجح، مطوفاً في الإنترنت في محاولة للاكتتاب في إصدارات الأَسهم العمومية الأولية (IPOs)، لاعناً بصوت هامس

أية أَسهم اتصالات لا تصل أسعارها إلى مستوى تطلعاته الكبيرة. وبما أنه اعتاد بيع كتبه بنفسه بواسطة الاكتتاب غالباً وليس عبر الناشرين التقليديين، فليس من الصعب تخيله وهو ينشىء موقعاً على الشبكة للقيام بنفس العملية. وما تزال مقاربته للاستثمار، والعمل، وتحقيق المطالب المالية وثيقة الصلة بالعصر الحالي. ولو بقي حياً يرزق، لأطلق تعليقاته الصاخبة حول العديد من القضايا، متسائلاً، مثلاً، عما يفعله رئيس «مايكروسوفت» الملياردير بيل غيتس بكل ثروته، أَو مقدراً عدد الأبنية التي تتطلَّب فعلاً من قطب العقارات دونالد ترامب وضع اسمه عليها. كان سيمتدح الملياردير المتواضع وارن بوفيت صاحب شركة «بيركشر هاثاوي» (Berkshire Hathaway) ويطري قدرته على الحفاظ على الخسائر والأَرباح المالية ضمن قواعد الحكم المنطقي. وسيعقد أواصر الصداقة مع قادة الاستثمار المعتمد على الحس السليم، مثل جاك بوغل من «فانغارد جروب» (Vanguard Group)، المؤيد المتحمس لصناديق الإستثمار المشتركة المنخفضة التكلفة، أَو بيتر لينش من «فيدليتي إنفستمنت» (Fidelity Investment)، المعروف بانتقائه للأَسهم الرابحة وتأييده لمبدأ «قم بشراء ما ترغب به فعلاً». لم ينس مارك توين الماضي أبداً، لكنه استمد طاقته ونشاطه من الاحتمالات الكامنة في الحاضر والمستقبل كليهما. ترى، ما النتيجة التي كان سيتوصَّل إليها لو عرف وضع شركة مثل «سيسكو سيستمز إنكوربوريشن» (Sisco Systems Inc.) التي تضخمت بسرعة خلال أربعة عشر سنة لتصبح سنة 2000م أغلى

شركة على وجه الأرض، وتفاخر بقيمة سوقية تربو على 555 مليار دولار؟ لقد غدا الميدان الضخم للتكنولوجيا المرادف المكافىء لميدان النفط وسكك الحديد الضخم في عصره.

يمكن أن يكون شعار مارك توين «ما دمت هناك، قم بذلك». فقد جمع ثروة طائلة وهو في الخمسين، ثم أفلست دار النشر التي أسّسها حين بلغ الستين، وأثرى مرة أخرى في السبعين، وتفادى الوقوع في خطر الإفلاس الشخصي بعدئذ ليترك في نهاية المطاف عقاراً قُدِّرت قيمته بعد وفاته بحوالي نصف مليون دولار. وساعده مسؤول تنفيذي ثري يعمل في مجال النفط على إحكام ربط وعقد اتفاقات مربحة لحقوق النشر أفادت إلى حد كبير ذريته من بعده. عاش توين في عصر لم يعرف سوى القليل من شبكات الأمان المالي التي تنشئها الحكومة، بحيث يمكن للهلع أن يبدِّد أية ثروة بسرعة. وبالرغم من تركه للمدرسة وهو في الثانية عشرة من العمر بعد وفاة والده، إلاّ أنه حين بلغ سن الرشد منح درجة الشرف من جامعات ييل، وميسوري، وأكسفورد. لقد ساعدت عزيمة «بغل ميسوري» العنيدة مارك توين على اجتياز كل ظروفه بسلام. وفي حين أنه لم يعبد المال، لكنه وجد دائماً أن إبقاءه في متناول اليد يقدِّم عوناً لا حد له. وبوصفه أول أمريكي شهير يكتب بلسان بلده الشائع، فقد كان حاد الذهن، شديد الهزل في تقديم ملاحظات خلدها الزمان حول تقلبات عالم الاستثمار والبلايا التي تحل بالمرء حين يحاول التكيف معها. كتب في إحدى رسائله:

«عملت هناك في كل أنواع المهن والحرف المعروفة في اللوائح. اشتغلت كل شيء، بدءاً بمحرر في صحيفة وانتهاء بكنّاس للعقبات من أمام القاطرات، وتشجعت على الاعتقاد بأنه لو كان ثمة مزيد من المهن القليلة المتبقية لتجربتها لحقَّقت نجاحاً باهراً في نهاية المطاف وكشفت المكائد السرية التي يخططها المنافسون من أجلي».

نقب باحثاً عن الفضة والذهب في نيفادا وكاليفورنيا، وعمل ربَّاناً لمركب نهري على الميسيسبي، وطابعاً في نيويورك وفيلادلفيا. وشملت المهن الأخرى التي احترفها عمله كمحرر ومراسل صحفي، وكاتب سفريات، ومحاضر من أفضل المحاضرين في العالم. كما حصل على براءات للعديد من الاختراعات، منها سجل يقوم بلصق القصاصات ذاتياً حقَّق درجة كبيرة من النجاح، وآلة ميكانيكية لتنضيد الحروف لم تكن عملية جداً بسبب دقتها المفرطة، وملحق غذائي لم يعرف الانتشار أبداً. سعى دأبه دون كلل لتطوير الأفكار المناسبة للاختراعات حتى آخر يوم في حياته. وكما قال لي روبرت هيرست المحرر العام لوثائق وأَوراق مارك توين خلال زيارة لمكتبه في مكتبة بانكروفت بجامعة كاليفورنيا في بيركلي: «في بعض الأحيان، أحبَّ (توين) فكرة الحصول على قدر كبير من المال إلى درجة أنه أهمل ما يملكه من موهبة. وبالنسبة له، يأتي المخترع في المرتبة الثانية بعد». كان مفكراً تقدمياً، وزعم أنه أول أمريكي يمتلك هاتفاً في مسكنه الخاص، وأول شخص يستخدم الآلة الكاتبة في الأدب، وذلك حين كتب «توم سوير». كما ظهرت في أعماله الاختراعات والاكتشافات

الحديثة، مثل التلفزيون والطاقة الذرية. كتب مرة في مقالة له: «بالتأكيد، كان قرناً صغيراً ومذهلاً ذاك التاسع عشر! لكنه هزيل متواضع مقارنة بما سيكون عليه القرن العشرون».

من تجربته على القارب النهري، تبنَّى اسمه الأدبي المستعار مارك توين، الذي يعني صرخة «مراكبي» تشير إلى عمق المياه البالغ قامتين، أو اثني عشر قدماً، وهو مستوى مقلق بكل ما في الكلمة من معنى للمركب البخاري. وبوصفه بائعاً ومشترياً نهماً للأسهم، أغرم بالسخرية من الدافع الذي لا يقاوم للمضاربة ومن عثراته المضحكة عند محاولة القيام بها. فعلى سبيل المثال، سقط طريدة للمضاربة بأسهم التعدين، وفشل في شراء أسهم «بل للتلفونات» Bell Telephone التي عرضت عليه في وقت مبكر بسعر مجاني تقريباً. سحره الأوغاد في سعيهم لانتزاع المال من الآخرين، والمثالان الواضحان على ذلك تجسدهما شخصيتا الملك والدوق بكل ما يميزهما من صفاقة في رواية «هاكلبري فين»، حيث أساء كل منهما تمثيل نفسه أمام المجتمع المحلي بأكمله قبل أن يتم طلاؤه بالقار، وغرس الريش في جسده وطرده خارج البلدة. كانت لبرامج الإثراء السريع في أيام مارك توين، مثل مناجم الذهب الزائفة، علاقة متبادلة مع اتصالات البيع الهاتفية «الباردة» والإعلانات المحمومة المتشعبة على الإنترنت في أيامنا هذه. وما زال القول المأثور «ليس كل ما يلمع ذهباً» صالحاً للتطبيق في العصر الحالي.

كان هيِّئاً (بهي الطَلّة) وهو يرفل بحلته البيضاء الأنيقة على مدار

السنة، وذلك قبل قرن كامل من قيام الروائي المعاصر توم وولف باتخاذ ذلك المظهر المحسوب بدقة. غدا مارك توين أول رجل مشهور في أمريكا واستمر يحمل ذلك اللقب لعدة عقود. في مرة من المرَّات أشار إلى نفسه باعتباره «أبرز وأشهر شخصية على ظهر الكوكب». كان في الحقيقة مواطناً وطنه العالم كله. وحتى في هذه الأيام، لا يمكن لأحد أن يخطىء في تمييز صورته الكاريكاتورية، بشعره الأبيض المتهدل وشاربه الكثّ. تمتع بقدرة عظيمة على الحديث والتواصل مع الناس، فقد أثرته جولاتُهُ حول العالم لإلقاء المحاضرات لأن الجميع أحب ظرفه وحكمته. ألقى حوالي ألف محاضرة في عدد لا يحصى من البلدات الصغيرة التي بات في كل منها ليلة واحدة. ودسّ أنفه الفضولي في المجتمعات الراقية في المدن الكبرى في مختلف أرجاء العالم. أما تعليقاته فما زالت تمتلك وهجها اليوم كما كانت في أيامه، وتستحق التكرار باستمرار. وعلاوة على ملاحظة السمات المشتركة بين البشر، سخر مارك توين من أجواء الفخامة والتبذير المحيطة بأغنى صناعيي العصر، واعتبر أن رجالاً مثل الكومودور كورنيليوس فاندربيلت، يفتقرون إلى مشاعر الحنان والشفقة الإنسانية، كان لكلماته تأثير جدّي، وعلى سبيل المثال، فإن تعليقاته الساخرة على الخداع الشديد الذي يمارسه مجلس إدارة الشركات، والتي شملت عبارة «برنامج جديد»، قادت الرئيس فرانكلين د. روزفلت إلى صياغتها كعنوان لخطته الاقتصادية الشهيرة لإخراج أمريكا من حقبة الكساد الكبير في الثلاثينات.

قال مرة: «أنا الجنس البشري برمته دون افتقاد التفاصيل؛ لقد درست في دراسة الجنس البشري وركزت اهتماماً قوياً طيلة هذه السنين على شخصي، على ذاتي»، فهو الذي «خَبر مسلك» العديد من أساليب العيش. «وجدت بنسبة صغيرة أو كبيرة كل ميزة وكل نقيصة يمكن العثور عليهما لدى عامة البشر». خلد في كتاباته الناس الفقراء في بلدته هانيبال ـ ميسوري، لكنه أيضاً كتب عن طبيعة الطبقة العليا الضيقة الأفق التي قابلها في إنكلترا، حيث تربعت أعماله على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً. وبوصفه صديقاً للرئيس يوليسيس س. غرانت، فقد رتَّب أمر نشر مذكراته الشخصية التي أكسبت أرملته أضخم «شيك» يدفع إلى مؤلِّف في ذلك الوقت. كان يُدعى لتناول العشاء مع أشخاص مثل القيصر ولهلم الثاني وأمير ويلز، وقبيل وفاته بمدة قصيرة لعب الغولف المصغر مع الرئيس وودرو ويلسون في برمودا. ولكن على الرغم من هذا المعشر، لم تغب عن أعماله لمسة التواصل مع الناس العاديين، رجالاً ونساء وأطفالاً، مقدماً بأسلوب بليغ الطيبة الأساسية الكامنة في أعماقهم، ونقاط ضعفهم، وعيوبهم.

يعتمد هذا الكتاب على الأقوال المأثورة الهازلة، والساخرة، والمتبصرة، والعنيفة، المتصلة بالاستثمار وإدارة المال، والمأخوذة من روايات مارك توين الشهيرة مثل «مغامرات هاكلبري فين» «Adventures of Huckleberry Finn»، و«مغامرات توم سوير» «Adventures of Tom Sawyer»، و«أمريكي من كنيكتيكت في بلاط الملك آرثر» «A Connecticut Yankee in King Arthur's Court»،

و«الأبرياء على سفر» «The Innocents Abroad»، و«عصر البريق الزائف» «The Gilded Age»، و«ويلسون الأحمق» «Pudd'n head Wilson»، و«بقساوة» «Roughing it». إضافة إلى العديد من قصص مارك توين القصيرة، وخطبه، ورسائله الشخصية، والرسائل المنشورة إلى المحررين. في كل حالة من هذه الحالات، يتمثَّل الهدف الأساسي في ربطها بالظروف المؤثِّرة على المستثمر في الوقت الراهن. فالمال والطبيعة البشرية مفهومان لم يطرأ عليهما تغيير جوهري منذ أيام مارك توين.

لو أن هذا العالِم الناقد الذي عاش في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ما يزال بيننا لصياغة دليل استثماري يعتمد على «الحس البدهي السليم» لمواطني القرن الحادي والعشرين، لكان قد شمل على ما أعتقد نقاطاً مثل:

1 ـ لا تأخذ معلومات سرية عن مسلك البورصة من الجهلاء أَو المحتالين.

2 ـ لكل جواد كبوة، وكلما سقطت انهض من جديد، وافعل ذلك بفخر واعتزاز.

3 ـ تملك وفرة من الإستثمارات الثابتة، لكن ينبغي أن تضم أيضاً أَسهم شركات التكنولوجيا، فهي التي تمثِّل المستقبل رغم كل شيء.

4 ـ احذر من المحتالين. فهم لا يتغيَّرون بمرور السنين؛ بل تتبدَّل الضحايا.

5 ـ ليس هناك سوى القليل مما يمكن أن يوصى به حين تكون مفلساً ـ على الإطلاق.

6 ـ حين تقبل المخاطرات، خذ باعتبارك أن المضاربة يمكن أن تكون سبب موتك أيضاً.

7 ـ كن على حذر من القروض المريحة، فشروطها ليست ميسَّرة.

8 ـ اعرف أن الادخار يتطلَّب انضباطاً مؤلماً (خصوصاً بالنسبة لك).

9 ـ يمكن للبحث عن الثروة أحياناً أن يكون مرضياً مثل العثور عليها فعلاً.

10 ـ لا تدع ثروة الآخرين تروعك. ما الذي يجعلك تعتقد بأنهم أفضل منك؟

11 ـ اعرف قيمة الدولار، وتفكر بها ملياً، وتشبَّث بذلك الدولار بشدة.

12 ـ لا تنسَ أبداً جذورك وأصولك المالية. في الحقيقة، قد تضطرك الظروف عَرَضاً إلى العودة إليها يوماً ما مرة أخرى.

13 ـ إقبل حقيقة أن بعض الناس سوف يظنون دوماً أن مالهم أفضل من مالك نوعاً ما. دع القلق لهم ولا تنشغل أنت بذلك.

14 ـ اعرف أنه مهما بلغ حجم المال الذي جمعته، فلن تستطيع أن تأخذه معك.

يبقى تنبيه رقيق: لنتذكَّر أن كلمات مارك توين ليست مصمَّمة لتخاطب أولئك المحافظين الجامدين المحاذرين الذين لا يتغيَّرون ولا

يقبلون الجديد. فقد كان حتى النهاية مفكراً «شبابياً»، مغرماً بلعب البليار وتدخين السيجار، ومتمتعاً بروح تهكمية ساخرة ولاذعة وحتى قاسية أحياناً. لذلك فالمطلوب في هذا الكتاب أن تمتلك روح الدعابة فيما يتعلَّق بالمال وبذاتك. وإلاَّ، فلن تستمتع فعلاً بمرابحك من الاستثمار بذكاء وتدبير أمور المال ببراعة على أية حال. لهذا حاول الاسترخاء وتخلَّص من القلق مع مارك توين وشخصيته وروحه. «أحبُ الحكاية الجيدة المروية بأسلوب ممتع. ذاك هو السبب الذي يضطرّني أحياناً إلى روايتها بنفسي».

opelkandl.com